# مصطلحات الألوان في اللهجة الدارجة الفاسية
# قراءة في المكون والدلالة

د. عبد المالك الشامي (*)

**مدخل حول منطلقات العمل:**

لا يقصد بهذا العمل أن يقدم معجماً كاملاً للألوان في اللهجة الدارجة الفاسية، لأن هذا العمل قد قام به الغير في صور مختلفة ولأهداف مختلفة أيضاً [1]. وإنما القصد وضع عملية الصياغة المصطلحية عند العامة من خلال ما توافر لي من مواد هذا المعجم خلال الظرف القصير الذي طُلبت منّي المشاركةُ فيه. وقد كان معتمدي في جمع مواد هذا المعجم على الرواية الشفهية أساساً، لرغبة خاصة تتعلق بالتعرف على فكرة مصطلح اللون كما يفهمها العامي أو كما يمكن أن يكون قد تصورها عند اقتراحه لصيغة أو مفردة تعبر عن مفهوم. ولاشك أن هناك مجهودات أخرى قد بذلت، في جهات مختلفة من الوطن العربي، لجمع مثل هذا المعجم واستغلاله في إطار الهدف الذي جمع من أجله- سواء كان على الصورة التي قمنا بها أو بصورة مختلفة-.

وقبل أن نقوم برصد مادة هذا المعجم، عمدنا إلى تجميع جملة غير قليلة من المصطلحات التي استعملت في الدارجة الفاسية، انتهاء بتاريخ منتّصف القرن العشرين، بما يعنيه هذا التاريخ من الناحيـــــة الحضارية من اندماج بين المغاربة والحضارة الأوروبية الغازية من جهة، وبما يعنيه أيضاً من الناحية التاريخية من تمسك جماعي بخصوصيات المحيط ورفض شبه إجماعي لكثير من المعطيات التي حملها المستعمر معه، وهكذا لم يتّضمن هذا المعجم إلا ما جرى منه على الألسنة حتى ذلك التاريخ.

إن تقديم مكونات ما تيسر من هذا المعجم اليوم يفسح المجال -ولاشك- لفهم العناصر التي اعتمدها العامة عند وضع مصطلح ما، ومصطلح اللون كنموذج. وهي عناصر يمكن أن توجد لها نظائر عند الشعوب الأخرى ولا شك، ولكن هناك بعض التميزات التي يفترض أن ينهض الظرف المحلي بتقديم عنصر الخصوصية فيها، وهو ما يقصد عند عرض هذه التجربة. إذ الألفاظ الحضارية التي تستعملها العامة تشكل لبنة أساسية ينبغي اعتمادها عند التفكير في وضع المصطلح. لأن المصطلح لا يكتب له الذيوع والانتشار إلا إذا كان له جانب نفعي يستغله الناس ويتداولونه، ومن ثم، ولأجل اختصار المسافة بين وضع المصطلح وانتشاره، يفترض الاستئناس بالمصطلح العامي، في صوره المختلفة، بشرط إخضاعه النسبي لمتطلبات اللغة العربية وشـــروط سلامة التركيب فيها.

---

(*) كلية الآداب - ظهر المهراز - فاس

إن اختيار تجربة اللهجة الفاسية ينطلق من الخصوصيات الاجتماعية التي تمثلها هذه المدينة باعتبارها الوارث الوافر النصيب للحضارة العربية في الأندلس، بل في الغرب الإسلامي في الغالب.

وينطلق أيضاً، من الخصوصية السياسية التي مثلتها المدينة باعتبارها كانت عاصمة سياسية لكثير من الدول المغربية منذ فجر التاريخ الإسلامي ولمدة طويلة تتجاوز تسعة قرون، فاستقطب لذلك فئات اجتماعية عريضة مختلفة الأعراق والمشارب.

ثم ينطلق، أيضاً، من اعتبارها من أكبر عواصم العلم في المغرب، وما كانت تمثله هذه الخصيصة من إشعاع العلماء على طبقات العامة في لغاتهم وسلوكهم الحياتي.

كل هذه المعطيات يمكن أن تكوّن عنصراً مؤثراً في نمو اللغة المستعملة عامة والاصطلاحية منها بصورة أخص.

إن تكوّن معجم مختص بظاهرة بعينها لا يفترض أن يكون قد قام بين يوم وليلة، ولذلك فإن دراسة تطور اللغة الاصطلاحية لا بد أن ينطلق من تلمس النصوص التي تضمنت هذه اللغة، والأمر يمكن أن يكون هيناً حين يتعلق باللغة الفصحى المكتوبة، في أية صورة من الصور، إبداعيةً كانت أو وصفيةً. لكن حين يتصل بلغة عامية تتغير مفرداتها بتغير الظروف المؤثرة في الحياة الاجتماعية، فإن الأمر يبدو صعب المنال. ولهذا فإن البحث في الدلالة الوحيدة المجسدة لمصطلح مغربي عامي ما، قد يكون فيه من المغامرة ما فيه، لذلك من المفيد عند توخي دراسة مهتمة بهذا الهدف أن يعتمد- في جملة ما يعتمد- البحث في التطورات التاريخية للاستعمال المدروس ما أمكن، وربما الاستعانة أيضا بالدراسة المقارنة بين اللغات المجاورة أو اللهجات العربية أو الأمازيغية التي يمكن أن تكون قد أثّرت، بكيفية من الكيفيات، على معنى المصطلح أو على تركيبه.

ونقدم بين يدي هذه القراءة في الدلالة والمكون ما انتهينا إلى جمعه من المصطلحات- في ظل الظروف التي أشرنا إليها آنفا- مرتباً بحسب الدرجات التي يتكون منها اللون بين الفاتح والغامق والراقش والمختلط. لأن العامي الفاسي كان يحس بانتساب الألوان إلى أصول محددة. وتوجد ترجمات تقريبية لكل مصطلح لون باللغة الفرنسية في المظان التي ألمعنا إليها.

### معجم الألوان:[2]

**الأبيض**: لبويوض- ثلجة- اللبني- لبيض المعفوص- لبيض العياط- لبيض فجرة- لبيض صقصاق- لبيض لمبربش- لبيض لمنمش- السمني- المسكي- السكري- لشقر-لزعر-الشمعي-كفاولي- الكاكي-قلب حموصة- قلب بنانة. (20)

**الأصفر**: الصفيفر- الخبوري- الزيواني- قلب الزهرة- الكناري- لصفر الفاني- القيقلان - الحلبي- الذهبي- المذهب- النحاسي- الليموني- الكرعي- الحمصي- الزرعي- الخوخي- الرنجي- اللتشيني- الزنبوري- خراقطوط - شعر الجمال. (22)

**الأحمر**: لحميمر- لحمر بوعمرو-بلعمان- العكري - دم العود- العسلي- الوردي-روس الورد- نوار العطرشة- الزبطي- الفنيدي- الديدي- الفجلي- ياسمين الشرق- المشماشي- حب الرمان- الرماني- الحمزي- لشهب- الحجلي- الخروبي- الشكرناط- الشكلاطي- القرنفلي- نوار القرنفل- الزفزوفي- القهوي. (28)

**الأخضر**: لخضيضر- لمخضر- القصبوري- الزاجي- المرارة- الخرشوفي- لخضر الشريح- الموبري-الخزي -الربيعي-الزيتي-الزيتوني- الكموني- الشيـــي- السحتري-طاب ما طاب-. (18)

**الأزرق**: الزريرق-النيلية- المنيل- النيلي- السماوي - ضو الصباح- عنق حمام- حجري- راس وقيدة- العلجة- الفاختي- البرقوقي- شرقرق- بيض البرك- المدادي- القوقي-. (17)

**الأكحل**: الكحيحل- الفحمي- المحرقص- الجبجة- الغلدماني- المدمدم- الصمغي-الكحلي- الرمادي- الفاري- المفضض- الفضي- الرصاصي- السحابي- الغيسي-الخمري- الزرزوري- النميشي- المبرقش-البركّي-الحمراني-الأسمر-الدم المعزول. (24)

إن أول قراءة لهذا العدد من المصطلحات تبيح لنا أن نستنتج استنتاجاً أولياً مؤداه أن هناك وفرة كثيرة من المصطلحات التي اعتمدها المجتمع الفاسي المغربي للتعبير عن مختلف الألوان التي يبصرها أمامه. وهذه المصطلحات موزعة على الألوان الرئيسية الستة: (الأبيض، والأصفر، والأخضر، والأحمر، والأزرق، و الأكحل).

ورغم أن الألوان الأصلية- ألوان الطيف-تبلغ السبعة في عرف علماء الفيزياء، فإن المجتمع الفاسي ربما يكون قد أقر بخصوصية هذه الألوان الستة كألوان أصلية يذكرها في أمثاله العامية، وقد يستعملها في بعض التعبيرات الحِكَمية أو الطبية أو حتى الشعرية.

ومن اللافت للنظر أن هذه الألوان عند تجزيئها لم تكن متوازنة، من حيث العدد، لاعتبارات مختلفة منها ما يتصل بدرجة الألوان الملحقة باللون الأصلي، ومنها ما يرتبط بالأوصاف الملحقة باللون من حيث كونه فاتحاً أو صارخاً أو مرقشاً، بالإضافة إلى عملية التأنيث التي تلحق جل الألوان التي تقع تحت صيغة فصيحة مدرجة (خاصة في الصفة والنسب). وهكذا تبلغ الألوان التي تتصل بالأبيض نحوا من(20) لوناً، وبالأصفر (22) لوناً، و بالأحمر (28) لوناً- و هو أكثرها فروعاً-وبالأزرق (18) لوناً، وبالأخضر (17) لوناً، وبالأكحل (24) لوناً.

ويبدو اللون الأحمر، بمشتقاته وملحقاته، أكثر الألوان حضوراً في الاستعمال، ويمكن أن نجد لذلك من التبريرات ما يتعدى الحصر. ثم يليه الأكحل، فالأصفر، فالأبيض، فالأزرق، فالأخضر. و لم أمل في هذا إلـــى البحث عن تبرير غلبة ألوان بعينها لأن الأمر قد تتدخل فيه عناصر تتعدد وتتنوع بتنوع الظروف الذاتية وكذا الاجتماعية والنفسية والدينية التي أثرت في ذهن العامي، فجعلته يفضل هذا اللون على ذاك.

والترتيب الذي اقترحناه يمكن أن يكون متصلا بتدرج اللون في العين الملاحظة بين الفاتح والغامق، إذ المظنون أن العامي الفاسي كان يحرص على أن تكون تعبيراته متصلة اتصالاً مطابقاً ودقيقاً لكل ما يشاهده، على عكس ما هو معروف في المجتمعات البدائية أو ناقصة التحضر.

**مصادر مشتقات الألوان:**

يمكن التنبه إلى أن المجتمع الفاسي اعتمد في استنباط فروع الألوان الأصلية على الطبيعة بنباتها، وجمادها، وطيورها، وحيوانها، وإنسانها، فنسب كل لون إلى ما يقابله في هذه الأصول.

فأخذ مثلاً من النبات: جل ألوان الزهور والورود سواء مس اللون مظهرها العام الظاهر للعين (نوار العطرشة، نوار القرنفل، روس الورد، الديدي، بلعمان، ياسمين الشرق، والقيقلان)، أو مس جزءاً منها (روس الورد، قلب الزهرة). كما استعمل جل ألوان الفواكه المتميزة بتفرد لونها (كالزيتون والليمون واللتشين (البرتقال) والرمان في صورتيه- الرماني- وحب الرمان- و النارنج و الخوخ و الزفزوف و المشمش و البرقوق، وحتى بعض الفواكه غير المعروفة في البيئة الطبيعية المغربية، آنذاك،كالكاكي والموز - البنان-).

واستعمل، أيضاً، جل الخضار والزروع المتميزة سواء في صورتها الظاهرة كالكرعي (القرع الناضج) والزرعي (الزرع اليابس) والحمصي (اليابس) أو فيما اختفى على العين منها (قلب حموصة، قلب بنانة)، بالإضافة إلى استعمال ألوان بعض النباتات المنتفع بها (السحتر و الكمون و الخرشف و الشيبة و القزبر و الحلبة).

واستعمل من الجماد: ألوان المعادن النفيسة (الذهب والفضة والنحاس والرصاص)، ولون التراب المحول كالزجاج - الأخضر- أوالمبلل بالمطر (الغيسي)، أو النبات المحول كالفحم، أو الصدفيات المحروقة (الحرقوص)-المحرقص-،وكذلك لون الحجر- الرمادي- ولون الماء من خلال ما قد يختلط به أو يمسه بنوع من المساس (فالعكري) الذي يعود إلى العكرة التي تصيب الماء، لاختلاطه بالتراب الأحمر، والأزرق النيلي أو المنيل أو النيلة- من خلال عكسه للون السماء، ممثلاً خاصة في ماء النيل، والأزرق الفاتح، ممثلاً في لون السماء، عند صفائها (السماوي)، ولون بعض المصنوعات كالسكر والشمع والمسك والصمغ والمداد، ونسبها إلى ما يظهر من لونها: السكري والشمعي والمسكي والصمغي والمدادي.

وأخذ من بعض الحيوانات لونها المميز، سواء كانت ماشية أو طائرة، فالفأر والحصان والجمل والقط، من الحيوانات التي استرعى لونها نظر العامي (رمادية الفأر، ووبر (شعر) الجمل- الأشهب- ودم الحصان - شديد الحمرة-، واختلاط لون بعض القطط (السحتري) أو حتى صفرة غائطها).

وأخذ من الطيور ألوان بعضها، سواء كانت وحيدة اللون أو كانت مشكلته، وسواء مس اللون كل

الطير (الحمامي أوالحجلي أو الفاختي...) أو مس بعضه (عنق الحمام) . فالفاختي المنسوب إلى الفاختة -الحمامة- والقصد لون عنقها الأزرق، كان من أهم ما حير العامي فعبر عنه تارة تعبيراً مجازياً بإطلاق الكل وإرادة الجزء (الحمامة ولون عنقها)، وعبر عنه تارة أخرى تعبيراً مباشراً (عنق احمام)، والكناري لون طائر الكناري الأصفر الفاتح، والحجل الذي يغلب عليه في عين العامي اللون الأشهب الغامق، ولون زرقة بيض البط الباهتة. كلها ألوان كان القصد من تمييزها عن غيرها هو الدقة.

ومن بعض الحشرات لاحظ العامي لون الزنبور (الدبور) الذي يتردد فيه الأصفر والأسود حتى يكاد يصبح لوناً خاصاً، فكلما تردد أمامه وجود اللونين معاً استعمل مصطلح (الزنبوري) للدلالة عليه وقد جرى بين ألسنة العامة مثل شعبي يقول (الزين الزنبوري، الأكحل والخابوري).

ولم ينس علاقة اللون بالإنسان فوصفه بما يغلب على لونه من الأبيض والكحلي (شديد بياض البشرة شديد سواد الشعر) والأزعر والأشقر والبركي والأسمر والدم المعزول أو الحمراني والأكحل (شديد السواد) ووصف أيضاً لون بشرة المرأة البيضاء البضة المائلة إلى الأحمر ـــ (الزبطي) وما يطرأ على البشرة من عوارض المنمش و المحرقص.

وكما اعتمد على المعروف في بيئته، امتد بصره أيضاً إلى ما كان يطرأ عليه من خارج هذه البيئة من الألوان الطارئة عليه من شعوب أخرى، فأدخلها في قاموسه، ودرجها لتصبح لوناً مستعملاً في تعابيره.

وهكذا أخذ عن التعبير الأندلسي مثلا مصطلح (الشكرناط) الذي هو في أصله محرف عن الدارجة الأندلسية (الأشقرلاط) وهي كلمة مركبة من الأشقر الموازي للأصفر واللاط الذي هو لون قلب شجرة الأرز المحمر عند الأندلسيين [3].

واستعمل مصطلح (الشكلاطي) الملحقة بالكلمة الفرنسية شوكولا. (ولون الكفاولي) المنقول عن اللغة الفرنسية أيضاً (حليب بالقهوة).

واستعمل الكاكي المنسوب إلى شجرة الكاكي التي لا وجود لها في البيئة المحلية أو في البيئات المجاورة لها.

واستعمل بعض التعابير الخاصة ببعض الموصوفات التي لم تعد متداولة الآن نحو:

لون الخابوري الذي يمكن أن تكون له صلة بلون السنبلة المصفرة حسب اللهجة الدارجة الأندلسية التي كانوا يسمونها الخابور أيضاً وكانوا أيضاً يسمون بها قطعة الخبز الكبير[4].

ولون الزيواني: الذي قد تكون له صلة بلون التبن المبلل بالمطر [5]. وقد أخبرت من قبل بعض الزملاء أن سكان الصحراء الشرقية يطلقون كلمة الزيوان على العريش المصفر الذي يحمل البلح. فيكون معنى الزيواني على هذا هو اللون الذي يشبه لون (عرجون) التمر. وهو توجيه دقيق بالنظر إلى أن تجار التمور الصحراويين

كانوا كثيري الوفود على فاس، بل كان لهم فندق يسمى باسم تجارهم (فندق التمر).

ولون الحمزي: الذي يمكن أن تكون له صلة بالمذاق الحاذق، إذ هو وصف لكل لون أصفر قوي الصفرة، أو بلون كان يلبسه شخص اسمه حمزة اشتهر به.

ولون العلجة: له صلة بأصل كلمة علج التي تعني عند المسلمين في الغرب الإسلامي طوائف النصارى، وكذلك تعني أيضا الطوائف التي دخلت في الإسلام من النصارى، والمقصود تغيير المذهب أو الدين. فاستعير من فكرة التغيير تغيير اللون عن أصله فالأزرق المتغير عن لونه علجة. (6)

ولون شرقرق: الذي قد تكون له صلة بالطائر الذي يسميه المغاربة بهذا الاسم والذي يجتمع فيه السواد بالصفرة.

إن البحث في المكون والدلالة لمصطلحات الألوان لن يبلغ المدى المطلوب إلا إذا ربط بمن كان يستعمل هذه الألوان من الطبقات الشعبية، لأن وجود مترادفات في هذه الألوان وارد ولاشك، ولعل في وروده ما يفيد أن الفئات المستعملة لمصطلح لون دون الآخر كانت تتأثر بمحيطها الضيق قبل كل شيء، ثم توسعت بعد ذلك، معرفتها بالآخر لتستعمل من مصطلحاته ما يوافق مصلحتها كيفما كانت هذه المصلحة.

وهكذا، فأقرب العامة استعمالاً لمصطلحات الألوان هم الحِرَفيون، وأقرب الحرفيين إلى موضوع اللون هم مهنيو الصباغة ومن ينتفع بحرفتهم من المهنيين الآخرين، فهم الذين يستنبطون الألوان من أصولها النباتية أو المعدنية. لذلك، ربما كانت المصطلحات التي لها صلة بالنبات أو الجماد من المعادن والأتربة المختلفة هي الأقرب إلى طوائف الصباغين ومن يتصل بألوانهم من أصحاب المهن الأخرى. ويلي هذه الطبقة طبقة الفلاحين الذين لهم صلة بالمزروعات وما يتصل بها. ولعل المهنيين من تجار الثياب والخياطين والحاكة ومن في حكمهم، يستفيدون من هؤلاء وأولئك في تجميع محصول واسع من هذه المصطلحات لتشغيله في تقديم سلعهم للزبناء وتزيينها في عيونهم حتى ولو أدى الأمر إلى ابتكار مصطلحات غريبة عن بيئاتهم. وأكثر الفئات الاجتماعية إلحاحاً على التمييز بين الألوان هم النساء بحكم قوة الملاحظة التي يملكنها من جهة، وبحكم بحثهن عن التمييز والتميز في كل شيء.

أما الصيغ المعتمدة في تشكيل مصطلح الألوان في المفردات والمركبات، فالمفردات قد تهم الصيغ العربية الفصيحة، الصفة المشبهة (أفعل فعلاء)، وإن كان النطق الدارج يسعى إلى اعتماد التسهيل في المذكر والمؤنث (لبيض، لبيضا...). وقد تهم صيغة التصغير على الطريقة الدارجة في التعابير العامية القريبة من العربية كنحو صيغة فعيعل (صفيفر..) في الصفة المشبهة و (فعيعلي) في النسبة. والتصغير يكون في الغالب للتمليح. وقد تهم صيغة النسبة، وهذه تخص في الغالب الألوان المنسوبة إلى

النبات- خضراً كان أو فواكه- (الكرعي الزفزوفي الزرعي الذهبي..) وبعض الجماد (الذهبي، الفضي...) وبعض مشتقات الحيوان (اللبني، السمني، الحلبي..) وتضاف تاء التأنيث في حال المؤنث.

والمركبات: مكونة من مفردتين. والتركيب فيها إما إضافي: نحو (حب الرمان، نوار العطرشة...)، وإما وصفي نحو (لبيض الفجرة، لبيض العياط، الدم المعزول..)، وإما فعلي:(طاب ما طاب). وهذه الصيغ المركبة لا يقصد بها، ولا شك، إلا تثبيت الوصف عامة أو تثبيت خصوصية محددة فيه.

والخلاصة الأولية أن مصطلحات الألوان في التعبير الدارجي العامي الفاسي يمكن أن تقدم تصوراً تقريبياً عن فلسفة العامي في تشكيل المصطلح، حيث يتوخى الوضوح أولاً، والقرب من البيئة التي يعيش فيها عند مقاربته لمفهوم ما بواسطة التشبيه ثانياً، ويعتمد صيغ النسبة في العموم، والتركيب الإضافي والتركيب الوصفي بعد ذلك، في اعتماد بنية المصطلح ثالثاً. وقد يتخلى عن هذا حين يتعلق الأمر باعتماد صيغة دخيلة كما هو الحال، مثلاً، في مصطلحي (العلجة وشرقرق).

## الهوامـــش

1) الإشارة هنا إلى جهود بعض علماء المعاجم الذين اهتموا برصد التعابير الدارجة وعلى رأسهم المستشرقان (دوزي وكولان..)، وكذا إلى الجهود الأكاديمية التي انطلقت في الجامعة المغربية، وخاصة في الشعب الأجنبية التي كان لها اهتمام بالمنقول الشفهي، وفي كلية الآداب ظهر المهراز بحث هام تقدمت به صاحبته (الأستاذة العالية التافي) للحصول على شهادة الدراسات العليا في موضوع الألوان في اللغة العربية واللهجة الدارجة الفاسية. وكذلك الجهود التي يقوم بها معهد الدراسات والأبحاث للتعريب ومكتب تنسيق التعريب، حيث علمت أن هذا الأخير انتهى من وضع جذاذات المواد المتعلقة بهذا الموضوع والتي تهم المدن العربقة كفاس ومراكش وتطوان وسلا... وهي جهود تسهر عليها يد أمينة عالمة.

2) لم أضمن هذا النموذج المقدم اللون، في حال التأنيث، لاعتقادي بإدراك الجميع لوجود مذكر ومؤنث في كل شيء في الغالب.

3) تكملة المعاجم العربية (النسخة الفرنسية) ر. دوزي 516/1 طبعة بيروت لبنان 1968 المنقولة عن طبعة بريل 1881.

4) نفسه: 348/1 و 690.

5) نفسه: 615/1.

6) نفسه:158/2.